القراءة التاريخية للنصوص وكتابة النصوص التاريخية

ماري تريز عبد المسيح

وضعت الدراسات الثقافية الراهنة النماذج السائدة للتحليل البلاغي، والدراسات التاريخية التقليدية موضع الجدل. لقد لجأت الدراسات الثقافية إلى استخدام منهج نقدى وتاريخى-"بين معرفي" interdisciplinary يتجاوز المناهج المتعارف عليها، وغدت تلك الدراسات تتناول أشكال التمثيل (representation) كافة في المعيشي. أفضى الاهتمام بالمعيشي إلى إذابة الأسوار الفاصلة بين الكتابات الأدبية الراقية والشعبية، في الدراسات الأدبية والتاريخية. ومن جهة، ترتب على ذلك نقض الاتجاهات النقدية الشكلانية في مقاربتها للنصوص الأدبية بوصفها كيانات مستقلة بذاتها، نقضها بإحالتها إلى سياقاتها الاجتماعية التاريخية. ومن جهة أخرى، أفضت الدراسات الثقافية إلى نقض التأريخ التقليدي لافتراضه إمكانية تناول الحقب الزمنية بشكل إجمالي يستخلص منه حقيقة كليانية totalizing، مما يفضي إلى تحييد خطاب السلطة. وفي مواجهة ذلك سعت الدراسات الثقافية إلى تتبع العلاقات بين الواقع والتخييل، بربط التاريخ بالرواية في أوجه الاتصال الاجتماعي المعيشي كافة. يفضي ذلك إلى إضعاف مكانة التاريخ بوصفه علما يتجاوز الواقع، وموقع المؤرخ بوصفه خبيرا يمتلك سلطة المعرفة الراسخة. يتجه المنظرون الآن إلى دراسة التاريخ من منظور "بين معرفي" بوصفه ممارسة نقدية ونشاطًا اجتماعيًا سياسيًا.

وفي دراستي أنوي تبين بعض ملامح الجدل النظري السائد في الدراسات الثقافية، وأنا أعي تماما صعوبة تغطية ذلك المشروع المتنوع؛ لذا سوف أحاول تأمين مشروعي من تلك المخاطرة بالتركيز على بعض موضوعات الجدل القائم بين عدد من المفكرين الأمريكيين والأوربيين، الذين حفزوا البحث في قراءة تاريخية النصوص، وفي الكتابة النصية للتاريخ. ويرتكز اهتمامي على استكشاف أساليبهم المتغايرة في الربط بين النظرية والممارسة. وسوف أقصر بحثي على النصوص النقدية الثقافية التي تتفق في منطلقاتها، ولكن لاختلاف نهج الممارسة تتوصل إلى مرافئ متباينة. والقصد من ذلك البحث ليس مجرد تحديد الوسائط المعرفية المستخدمة، بل تتبع أثرها على قراءة الماضي وتفسيره في علاقته بالحاضر. وما يهمني على وجه الخصوص هو القراءات النقدية للماضي بوصفها أحد أضلاع المقاومة للأنساق الثقافية المشيدة في الحاضر. وأؤمل أن تفضي تلك الدراسة إلى

فتح آفاق لدراسة موقع المهمشين الخاص، وهو موقع يعمل على نقض المرويات التاريخية الكليانية المقصود بها اختزال الهوية، كما يقوض الفرضيات النظرية الساعية إلى تصنيف الكتابة للفصل بين الرواية والتاريخ[1].

الخلفية الاجتماعية التاريخية للخطاب الثقافي

تغيرت البيئة السوسيوسياسية sociopolitical جذريا في أوربا وأمريكا بفعل الممارسات الثقافية المعارضة في السبعينيات من القرن المنصرم، والتي تصدت للسياسات الثقافية المهيمنة. أثارت الحركات النسوية التساؤلات حول جدوى إقامة الأسوار الفاصلة بين الدراسات النقدية والثقافية، وأحييت الاهتمام بالتاريخ، بينما فشلت الدراسات الأدبية في حماية معاييرها النقدية من المؤثرات الخارجة عن جماليات الحداثة "الرفيعة" high modernism. فقد هيأت مجانية التعليم الفرصة لطلاب الطبقات غير المتميزة للالتحاق بالتعليم الجامعي، إضافة إلى قبول الجامعات الغربية أجناسا متنوعة من الطلاب بانتماءات ثقافية متغايرة. خلقت تلك العناصر الجامعية الجديدة جوا من الغيرية التي عادة ما تنشّط المعارضة للمعايير الراسخة في الدراسات الأدبية.

وقد طرح النقاد القادمون من خلفيات ثقافية مغايرة اعتراضاتهم في مجال التنظير، وكان العامل المشترك بينهم هو ارتيابهم في "عالمية" الجماليات الغربية، والأنساق المغلقة، فيما ذهبوا إلى ضرورة وضع المعاني والقيم رهن المساءلة، ولم يلتزموا بمنهج تنظير محدد. وليس من الغريب أن يتزامن ظهور حركات ما بعد الكولونيالية استجابة لقراءات إدوارد سعيد للاستشراق، وخطاب النقاد الأمريكيين الأفارقة، وكتابات الأقليات الثقافية على الساحة، بعد أن فقدت الجمالية الكلاسيكية مصداقيتها لارتكانها إلى مزاعم خطاب الفلسفة الوضعية ودعاوى الحرية، التي روجتها الليبرالية البرجوازية من جهة، والشمولية الماركسية من جهة أخرى. تهاوت تلك الدعاوى بعد الحركة الطلابية عام ١٩٦٨، لما كان لها من أثر على المفكرين، بل إن الدراسات الثقافية في بريطانيا وأمريكا نمت بفضل الباحثين الذين جاء تحصيلهم الدراسي في ظل المناخ الثقافي في أواخر الستينيات من القرن المنصرم. أيقن جيل ٦٨ أن التاريخ لا يصنعه الاقتصاد، والبنية التحتية لا تتحكم في مصائر الأفراد قدر تحكم اللغة.

رواية التاريخ وأنساق اللغة:

وجاءت دراسة ميشيل فوكو Michel Foucault للغة بوصفها نسقا دالا يكتسب دلالته عبر التكرار، والاختلاف والإحلال، لتعارض مفهوم اللغة لدي الشكلانيين والمؤخرين التقليديين، ممن اعتبروا اللغة نسقا مستقلا بذاته – أي مغلقا. والإسهام الفعلي لفوكو في مجال الدراسات الثقافية يتمثل في إدراكه غياب الفضاء الموضوعي المؤهل لاستشفاف الماضي؛ مما أطاح باليقين في الرؤية الأحادية للتاريخ، أو إمكانية روايته بصوت واحد. ففي كتابه ***المراقبة والعقاب*** *Surveillller et Punir* (1978); يلمح إلى أن الموقع الآني يشكل أيما رؤية للماضي، وهي حجة ترفض أسطورة الموضوعية ومزاعم القدرة على خلق نص أدبي مستقل بذاته، أو كتابة تاريخ كلياني للعالم. يتضمن طرح فوكو اعترافا بأن مواقع الذات الخاضعة le sujet هي نتاج للمباني الاجتماعية القائمة بتنوعها، ومن ثم فينبغي تقبل تعدد القراءات، وتعدد التواريخ، فعادة ما يكون الهدف من دراسة الماضي هو توضيح قضايا رهن الحاضر. كما عارضت دراسات فوكو مفاهيم الفلسفة الوضعية المؤسسة على جدلية مفادها أن التناقضات الاجتماعية تدفع بالتطور التاريخي قدما. ينبني هذا المفهوم على فرضية وجود فيلسوف أو "ذات متسيدة" sujet souverain تنفصل عن موضوع الفكر وقادرة على التحكم في تناقضاته (١٩٧٧: ٤٢).

وإن كانت اللغة نسقا يقبل التكرار والإحلال والاختلاف، فقد تستخدم اللغة بوصفها انتهاكا، بمقاربة النص متجاوزة المزاعم التي ينبني عليها، دون فرض ثنائيات، ودون منح امتياز للعنف أو للغالب دون المغلوب. لا ينطوي الانتهاك على فعل سلبي، بل باكتشاف عنصر الانتهاك في اللغة يدرك المرء "أن الوجود لا يرتهن بحدود" (١٩٧٧: ٣٥)، وإن كان هذا المفهوم يسلم باختراق السلطة للغة، فإنه يزيح الأسوار الفاصلة بين ما هو داخل الذات وخارجها؛ مما يتيح الانفتاح على الآخر وييسّر سبل التواصل مع الغيرية. وبنفي فكرة وحدة الذات وانفصالها عن الموضوع، تتلاشى نظرية استقلالية النص لتنفتح النصوص الأدبية على السياسي - بل لتتلاشى الفواصل بين الرواية والتاريخ؛ حيث تغدو القراءة موقعا لتلاقي الممارسات المتغايرة، أو يغدو النص شبكة تجدل نصوصا أدبية وغير أدبية.

وتفاعل المؤرخ الأمريكي هايدن وايت Hayden White مع فوكو منذ السبعينيات، وجاهر بذلك في حواراته (Jenkins, 1998: 81)، وتبعه في محاولة الكشف عن الخطاب الكامن في الدراسات العلمية والتاريخية، لينتهي إلى الجمع بين التاريخ والنقد الأدبي (White, 1973). ويختلف وايت مع المؤرخين السابقين لتمييزهم بين التاريخ والرواية، محاولة للتمسك بالعلموية، مما يعرض الكتابة التاريخية للتجريف الأيديولوجي (White, 1978: 90-99). ويرجع وايت هذا التوجه التاريخي الخاطئ إلى الفصل القائم بين "الكتابة التاريخية"؛ أي سرد الأحداث، والمنظور "التاريخاني"؛ أي بلاغة الطابع السردي للتاريخ، أو العنصر التخييلي الكامن به. يأمل وايت للتاريخ أن يغدو فنا لا علما، ويذكرنا بما سبقه إليه رولان بارت حين أراد للبنيوية أن تبتعد عن العلم لتغدو فنا (Newton, 1988: 144).

كما أفاد وايت من البنيوية، واتفق وكلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss في أن عملية التأريخ هي بمثابة تحويل الحدث إلى أسطورة، فالترتيب البنيوي لرواية الأحداث إما يفضي إلى تصعيدها إلى مجال الخارق (مثلما تناول ماركس الرأسمالية)، وإما يعمل على تطبيعها لتتفق والقانون السائد في العالم (مثلما فعل رانك Ranke)، فالكتابة التاريخية لا تكون "عن" أحداث، بل "من أجل" تحقيق رؤية أيديولوجية أو موجهة إلى جماعة اجتماعية بعينها (White, 1978: 102-04).

يرفض وايت الموقف العلموي للتاريخانية المطلقة لاستحالة وجود تمثيل للواقع التاريخي يتجاوز النسبية، ما ظلت كل رواية للتاريخ تستخدم اللغة وسيطا، فهي رهن لها. والمسألة ليست مجرد اختيار بين لغة ماركس وشبنلجر التي تزعم العلموية، ولغة رانك التي تتمسك بالنسبية؛ ذلك لأنها تروي تاريخ واقع ثقافي محدد، فتغدو أحكامها نسبية لارتهانها به دون إطلاق التعميمات. يذهب وايت في "صياغة" التاريخ إلى استحالة الاختيار؛ فأي استخدام للغة ينطلق من منظور نسبي، لاقتران مجالات الكتابة بأنساق اللغة. ولا تفضي الحتمية اللغوية إلى العدمية، بل تتيح إمكانية الترجمة من خطاب تاريخي إلى آخر؛ لتتكون رؤية من مجمل الخطابات، مما يعمق فهمنا للعالم. فكل تمثيل للماضي يعتبر صقلا لقدراتنا على تصوير العالم عبر اللغة، فإلى جانب التزود بالتراكم المعرفي الموروث، يغدو الجيل الجديد أكثر إدراكا بقدراته على تفهم الماضي (White, 1978: 116-18) وإعادة روايته في النص.

وقد تستملك النصوص الخطاب السائد أو تنقضه عبر تمثيل الحدث، ولكنها في الأحوال كافة تشارك في الممارسات الحوارية (discursive) التي تشكل الهوية الفردية والموقف الاجتماعي التاريخي. وبسبر أغوار الأدب أو أي شكل من أشكال التمثيل الثقافي بالكتابة، تغدو اللغة انتهاكا لنقضها "اللغة" بوصفها سلطة لا تقهر. واهتمام وايت بشعرية التاريخ يطرح منظورا جديدا للقراءة الأدبية في إطار الشعرية الثقافية.

energia، فمصطلح الطاقة في هذا السياق يحيل إلى البلاغة وليس إلى علم الفيزياء، فللمصطلح دلالة اجتماعية وتاريخية (١٩٨٨ : ٥). ويتمحور بحثه النقدي حول كيفية اكتساب الممارسات الثقافية بوجه عام وفي مسرحيات شكسبير بوجه خاص، فيهتم بما يحول تلك الطاقة إلى قوى فاعلة في المجتمع. ويتبين لجرينبلات أن المحاكاة في مسرح عصر النهضة جاءت نتاجاً لعمليات تداول وتبادل، وهو يعمد في تأويله إلى استخدام مصطلحات مأخوذة عن الاقتصاد الرأسمالي لتفسير التداول الثقافي. فوفقا له، لم يكن التبادل عبر العملة النقدية فحسب، بل انتقل إلى معاملات أخرى، تتمثل في العلاقة بين المشاهدين والكتاب المسرحيين؛ لكون المسرح حدثا جمعيا مشتركا. وفي دراسته لأساليب الصفقات المعقودة ورموزها typology والتي يتم بموجبها التبادل الثقافي يستخدم مصطلح "الاستملاك" appropriation لتعريف انتقال الثقافة من قطاع إلى آخر عبر تداول اللغة. وحين يكتسب المسرح حدثا ما من قطاعات أخرى، فهو لا يعكس العالم بل يقدم محاكاة وهمية (simulation) له (١٩٨٨ : ١٠).

يذهب جرينبلات إلى أن تلك المحاكاة الوهمية قادرة على تفادي الموت بوصفه مصيرا محتوما، فالتواصل مع الأموات يتطلب نكران الذات، كما يتيح التبادل مع أصوات عدة؛ مما يؤكد فكرة غياب مؤلف أوحد متعارف عليه، لاستحالة الحوار الفردي، فالحوار يتطلب وجود أكثر من فرد (١٩٨٨ : ٢٠). ويضيف بأنه في تأويل الماضي، أو نصوص الكتاب الراحلين يتم التبادل الحواري بين الأحياء والأموات، أو النص والحياة، وهو ضرب من التسويق لتداول الطاقة الجمعية، التي يستوحيها المشاهدون عبر الحيل المسرحية في النص. والحيل المسرحية لم يخترعها المؤلف المسرحي ولكنه اكتسبها عبر اللغة، حيث وصلت إليه تلك الصفقة في شكل روايات. تغمر الطاقة الجمعية جمهور المشاهدين، ثم تتناقل في ما بعد إلى المجتمع عبر المشاهدين؛ لتتفاعل في الحياة العامة وينجم عنها مواقف حياتية جديدة يعاد إنتاجها مرة أخرى في المسرح، فهناك حركة تبادل دائبة بين المسرح والحياة (١٩٨٨ : ٩-١١).

واستعار جرينبلات نظرية فوكو للخطاب التي وازنت بين اللغة والقهر، ليضفي عليها دلالة اقتصادية توازن بين المعاملات التجارية في المجتمع الرأسمالي والتواصل اللغوي (Wilson, 1992: 1-18). وقد كشف لنا التأويل من منظور رأسمالي إمكانية تداول عملات عدة، فهناك تبادل عبر دوائر اجتماعية متنوعة تذيب الحدود بينها، كما تُزال الأسوار الفاصلة بين الحقل الاجتماعي والأدبي، فهناك عبّور دائم عبر الحواجز في عملية مركبة من التداول والتبادل.

وتتركز معظم كتابات جرينبلات على التبادل المشترك بين النص الأدبي واستعاراته من مصادر أخرى، ليؤكد عبثية التمييز بين الحدث التاريخي وروايته، ففي معظم الأحيان يصعب تحديد الدائن والمدين، فهناك دائما نص ثقافي شاسع تم إنتاجه عير التبادل (١٩٨٩ : ٣٠). ويذهب إلى أن النص التاريخي والنص الأدبي يشتركان في إعادة تعريف القيم الاجتماعية السائدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر بإنجلترا، نتيجة تحولات ثقافية جوهرية، حيث شهدت تلك الحقب التاريخية ولادة فكر الحداثة وطموحاتها للولوج إلى جوهر الإنسان. جاهد هذا الفكر لربط الجوهرانية المسيحية السائدة في العصور الوسطى والتي فسرت جوهر الإنسان بالإحالة إلى الله، بالحركة الهيومانية/الأنسنة humanism لفلسفة الأنوار التي طرحت فكرة فردانية الإنسان حيث تتحدد هويته من الداخل (Howard, 1992: 20). وتعارضت تلك المفاهيم مع الاكتشافات اللاحقة؛ ففي نهايات عصر النهضة تنبه المفكرون إلى المبنى الاجتماعي للهوية البشرية، ومن ثم عُرضتها للتغيير الدائم.

تكشفت لجرينبلات علاقة عصر النهضة بالحاضر في مرحلة "ما بعد الهيومانية/الأنسنة"؛ ففي المرحلتين هناك شك في الطبيعة الجوهرية للإنسان. ويلمس جرينبلات تضاربا بين

"الشعرية الثقافية" لمعارضة النظرية

كشفت حفريات فوكو كيفية تشكل اللغة المعرفية لدعم السلطة[٢]، وأثرت أطروحته على المؤسسات التعليمية البريطانية والأمريكية التي تأهلت لاستقبال فكرة تعددية السلطة وتشعبها، في السبعينات بفضل الدراسات الثقافية التي ظهرت في مؤسساتها منذ الخمسينيات، لكتاب عدة من بينهم ريتشارد هوجارت Richard Hoggart، ورايموند ويليامز Raymond Williams بإنجلترا، ولايونيل تريلنج Lionnel Trilling، ومارشال ماكلوهان Marshall Mcluhan في الولايات المتحدة. كما أفاد نقاد التاريخانية الجديدة من كليفورد جيرتز Clifford Geertz الذي قدم النموذج المفهومي للثقافة بوصفها "منظومة من الرموز التي تنتجها الجماعة بطابعها المحلي." (١٩٩٢ (ب): ٤٠١).

قرأ الناقد الأمريكي ستيفن جرينبلات Stephen Greenblatt جيرتز Geertz في منتصف السبعينيات، ويعترف بفضله عليه (١٩٩٧: ١)، كما يرفض التمسك المطلق بالنظرية الأدبية؛ حيث يترتب عليه الإفلات من التاريخ، وعقد العزم على الكتابة ضد النظرية (١٩٨٩: ٤٢٩)، متعمدا مجابهة "النقاد الجدد" The New Critics لاعتبارهم الشعر شكلا يتميز على أشكال الإنتاج الاجتماعي كافة، ومن ثم تسمية توجهه بالتاريخانية الجديدة New Historicism، ثم جاء تعريفه لمنهجه التأويلي (الهرمنيوطيقي) hermeneutic في ما بعد "بالشعرية الثقافية" cultural poetics (١٩٨٩: ٤٣٠)، معتبرا الشعر والتاريخ أشكالا من "الشعرية"، فكلاهما ينطوي على قوى خلاّقة. كما يحاجج بأن الدراسة الأدبية تبحث في ظرفية العمل contingent (imprévu)، وخصوصيته، فالأعمال الأدبية – على عكس مزاعم "النقاد الجدد" – تحيل إلى واقع تاريخي ترتهن به (١٩٨٩: ٤٢٩).

ويتأسس رفضه للدراسات الشكلانية المجردة التي تتمسك بالنظرية، على المقاربة المعاصرة للنظرية التي تجاوزت الحدود بين الجمالية والواقع الاجتماعي التاريخي؛ فقد نقض الماركسيون مفهوم الجمالية المطلقة من جهة، كما دحضها المنظرون التفكيكيون deconstructionists من جهة أخرى. ويرى جرينبلات أن التفكيكية قد شككت في الأسوار الفاصلة بين الثنائيات، وفي الدلالة الراسخة. والأخذ بأن كل موقف ينبني على الاختلاف difference يفضي ضمنيا إلى تقبل عنصر الإخلاف differer؛ أي الإرجاء المتواصل للمعنى، فاختلاف المعنى يعني التخلف عن الوصول إلى نقطة ثباته. تغدو العلاقة بين الثنائيات متغيرة، كما يعد التراتب القهري بينها تعسفيا مؤسساً على أيديولوجيا أحادية، فكل نشاط بشري ليس مجرد نشاط تكميلي للآخر، بل قابل للإحلال محل غيره؛ ومن ثم فلا التاريخ يسبق الرواية ولا تسبق الرواية التاريخ، فيستحيل الوصول إلى لحظة البدء أو التاريخ الخالص.

وبالنسبة إلى جرينبلات إن كانت كتابة التاريخ لا تنجو من الغموض الذي يعتري النصوص الأخرى لتلاشي الحدود الفاصلة بين الحقيقة والوهم، فهناك لحظات تاريخية لا تحتمل تجاهل تلك الحدود. وهذا ما دفعه إلى الاهتمام بدراسة الخطاب الكامن في الاقتصاد الرأسمالي، والمؤسس على التداول والتبادل، عند طرح منهجه النقدي (١٩٨٩: ٤٣٠)، ففي دراسة كيفية اختراق هذا الخطاب للممارسات الثقافية كافة، حاول الكشف عن كيفية تداول الممارسات الثقافية وتبادل عناصرها في سياق مغاير يعمل على تنشيط الطاقة المجتمعية مُضْفياً على الحياة قيمة ومعنى.

كيفية تداول الطاقة المجتمعية عبر الثقافة

وفقا إلى جرينبلات، على الناقد بذل جهده في تحليل كيفية تداول الطاقة المجتمعية عبر الثقافة، وقد استعار مصطلح الطاقة المجتمعية من التقاليد الإغريقية التي أطلقت على البلاغة

أيديولوجيا عصر النهضة الداعية إلى الحرية الفردية، والواقع الفعلي للفرد في هذا العصر بوصفه ذاتا خاضعة لعلاقات قوى مسيّرة (Greenblatt, 1980: 1-8). وقد أدرك العديد من نقاد التاريخانية الجديدة والمادية الثقافية أن عصر النهضة بإنجلترا يعد عصرا انتقاليا يتسم بالانقطاع عما سبقه (Dollimore:1989)، لظهور العديد من المباني الاجتماعية المتناقضة حاولت الكتابات الأدبية التوسط بينها لإصلاح ذات البين. وعلى هذا النحو أوجد النقاد صلات عديدة بين الأوضاع التاريخية في عصر النهضة المتأخر والعصر الراهن.

وبالتعرف على تلك الانقطاعات تم إعادة قراءة النصوص القديمة بإحالتها للجدلية الثقافية السائدة في المجتمع آنذاك، كما شجع ذلك على قراءة النص في علاقته بالفرد بوصفه مبنى اجتماعيا وليس جوهرا. وفي هذه الحال، يغدو الفرد ذاتا–ذاتا تَخضع وتُخضع في آن، والنزوع إلى الشك في ما طرحه "النقاد الجدد" عن وحدة الذات، ومن ثم وحدة العمل الفني، يخلخل الاعتقاد السالف باستقلالية autonomie النص الأدبي، كما يدحض من نظرية الانعكاس في الأدب التي روجتها الماركسية التقليدية. لذا، يعتبر جرينبلات الأدب تمثيلا (representation) ليس القصد منه المحاكاة (١٩٨٨: ١) ولا يعد انعكاسا للواقع، بل ينطوي التمثيل على عملية تداولية negotiation وتبادلية بين الكاتب والمتلقي، تتحول في ما بعد إلى صفقة عامة transaction تشارك فيها أشكال التمثيل الثقافي كافة في صياغة نص أكثر شيوعا عبر التبادل والاكتساب بين أفراد المجتمع. يغدو النص جزءا من الخطاب السائد ورهن الجدلية الثقافية التي شكلته، فهو يعيد إنتاج الجدلية الثقافية في المجتمع، و يساهم في تشييدها في آن.

والطاقة الجمعية ليست وليدة الكتابة الأدبية فحسب، بل تسهم الأنشطة الثقافية كافة في إنتاجها (١٩٨٨: ١٩). ولا يرى جرينبلات أن حلقة التبادل الدائرة circulaire تفضي إلى حالة من الشلل في المجتمع، فإن كانت تخلو من عناصر التحريض فهي تشجع الفعلية الفردية agency على تفادي حالة الفناء أو الموت. تعد محاكاة الموت على المسرح وهمية لابتعادها عن الموت العضوي، وبتمثيله يظل الأموات أحياء، في حين يكشف التمثيل التخييلي للموت كيفية مقاومته باللجوء إلى السلطة. فالهدف من مشاهد العنف في أعمال شكسبير هو إبطال احتمالات حدوثها في المعاملات الاجتماعية، وحماية للحكومات التي تستخدم التمثيل بوصفه صيغة تشعر الأفراد بأنهم "أحرار" ليغيروا من الحكومات ويتغيروا بها، في حين تتعرض تلك الصفقة التبادلية للضبط في نظام بوليسي يصادر حياة الأفراد، فيما تستخدم الطبقات السائدة تلك العلاقات التبادلية لاحتواء عناصر النقض في مجتمعاتها.

النقض والاحتواء: عنصرا الإرجاء في الشعرية الثقافية

وفقا لجرينبلات سعت السلطات في عصر النهضة إلى احتواء النقض في التمثيل الثقافي أو القضاء عليه، في حالة استحالة الاحتواء، فيما تحولت تلك العناصر النقضية في الزمن الراهن إلى حقائق تتماشى والمدرك الحسي (١٩٩٢ ب: ٩٣). بعبارة أخرى، ما كان يمثل عنصر النقض في الماضي لم يعد يحمل الوظيفة نفسها في الحاضر، حيث تقبلناه وبات يشكل أحد أسس الجمالية، أو أحد دعامات النظام السياسي، حيث اتسعت معايير التقييم لتحتوي القوى الناهضة كافة.

والشعرية الثقافية وفقا لجرينبلات تتمثل في المفارقة التي ينطوي عليها العنصر النقضي، حيث يعد انتهاكا للسلطة وإحدى دعاماتها في آن (Greenblatt, 1992: 83-108). وفي دراسته لمسرحية شكسبير Shakespeare ***هنري الرابع*** *Henry IV* يوضح منهجه بتحليل كيفية تمثيل شخصية الأمير "هال" Hal لسياسة النقض والاحتواء، فهو يقوم بدور المحرض للمبعدين في العالم السفلي – أي دور الصعلوك، بينما يحتفظ بدور الملك. هذا التناوب بين الصعلوك والملك يعالج

الاختلاف والتناقضات الطبقية، فبدلا من نقض السلطات، بات نصيرا لها وأحد آلياتها. عند نهاية المسرحية يغدو فالستاف Falstaff الذي يمثل عنصر الشغب مرفوضا، ويسطع سلطان هال Hal لتأمين العدالة والنظام اللذين تعرضا للنقض فيما قبل، وتكمن المفارقة في تحول الشكوك الموجهة ضد النظام إلى مسلمات تدعمه، وهو ما يلخّص النسق السلطوي في العصر الأليصاباتي Elizabethan.

يستنتج جرينبلات من الدراسة التأويلية لتحركات هال Hal من صعلوك إلى ملك، ضرورة فهم شعرية السلطة في عصر أليصابات Elizabeth في إطار شعرية المسرح – وبذلك لا تقتصر الشعرية الثقافية على الأدب وفنونه، بل تمتد إلى الممارسة السياسية، وهذا أحد الأدوار المتبادلة بين الأدب والتاريخ. لم تستمد الملكة أليصابات Elizabeth نفوذها من العسكر، أو الشرطة، أو السلطة البيروقراطية، بل استمدتها من الاحتفالات المسرحية المحتفية بمجدها الملكي، فاحتوت كل ما يتهدد ملكها مسرحيا. كان على المشاهدين الانهماك في مشاهدة وجودها المرئي، فيما عليهم الحفاظ على مسافة تبعدهم عنها تعبيرا عن الاحترام. يزداد هذا الاحترام بإرجاء الشكوك في سلطة الحاكم عبر العرض المسرحي؛ مما يمتص أي تهديد نتيجة إرجاء النقض، فهناك عملية تبادل بين الموقف الحياتي (أي وجود الملكة في صالة العرض) والموقف المسرحي (الذي يتناول العلاقة بين الحاكم والمحكوم). يعطينا جرينبلات نموذجا لكيفية تشكل العقائد الجمعية والخبرات، وتحركها من وسيط تمثيلي إلى آخر، وهو بذلك يركز على العلاقات البنيوية، فهي دراسة تزامنية يظهر فيها النص بوصفه جزءاً من النسق الثقافي يتناص مع النصوص الأخرى؛ أي يتعامل مع نطاق شاسع من التشكيلات الاجتماعية. وبينما قد يشارك بيير بورديو Pierre Bourdieu بمنهجه في أنظمته التوليدية المستخدمة في تحليله للممارسة الثقافية، فهو يختلف عنه كثيرا. يذهب بورديو إلى أنه: "في معظم الأحيان، تقتضي الممارسة مزاولة فعل إدراكي أو نشاط ذهني فاعل، يمارس فيه التشييد بالاستعانة بإجراءات عملية، أو تشييد أنساق للتصنيف – تنظم المدرك الحسي وتنسق الممارسة" (١٩٧٧: ٩٧).

ويتجلى من ذلك كيفية اكتساب الممارسة التي أنتجتها أجيال متعاقبة، وكيفية إعادة إنتاجها لتغدو أداة تشحذ الإدراك وتنمي التواصل فيتولد عنها المعنى. واختلاف بورديو عن جرينبلات يكمن في تأكيد الأول أن الممارسة لا تتبع تحليلاً بنيوياً أو ذاتياً مغلقاً؛ فهي تتحدد أيضا بظروف الإنتاج لقيامها بدور اجتماعي (١٩٩٧: ٩٧). والنسق التوليدي الذي يطرحه بورديو لا يقتضي ضمنا الوقوع في شرك الحلقة المفرغة؛ فهو يضع احتمالات للخروج عنها بظهور ظروف إنتاج جديدة وتغيرات في الأدوار الاجتماعية. وعليه، فهناك دائما احتمال لتدخل المبعدين أو المهمشين؛ مما يدفع بضرورة قراءة علامات القهر في التمثيل الثقافي التي تتجاهله الأغلبية لنفورها من الموقع المهمش؛ لاقتراب الإقصاء من الفناء أو الموت. لم يطرح بورديو نظرية تتوصل إلى حقائق كليانية، بل منهجا قادرا على إبراز القصدية والإبداع في الممارسة الاجتماعية للفرد، وكيفية تفاعل الذات الفاعلة في المجتمع بتحديد خياراتها في إطار المباني الاجتماعية التي تحدد الخيارات (Bourdieu, 1990: 26-58: 195-226).

المادية الثقافية: المشروع النقدي والتاريخ السياسي

تشعب الخطاب النقدي منذ السبعينيات نتيجة تعدد القراءات البديلة لفوكو: ففي بريطانيا قامت كاثرين بلسي Catherine Belsey ببسط قراءة جديدة له في مقالها الشهير: "الأدب، والتاريخ، والسياسة." (١٩٨٣، ١٩٩٢) لتطرح مشروع المادية الثقافية، وكانت بذلك سبّاقة على نقاد "التاريخانية الجديدة". وفي دراساتها الأدبية، تستند إلى ما ذهب إليه فوكو

بخصوص "الرواية التخييلية للتاريخ من واقع سياسي". وبالمثل تذهب بلسي Belsey إلى أن المؤسسة الأدبية عمدت إلى "تخييل" منهج نقدى يزعم امتلاك الحقيقة، وفي مواجهة ذلك تدعو إلى "تخييل" نوع من الأدب قادر على تمثيل تناقضات التاريخ ويفضي إلى تغيير سياسي (١٩٩٢: ٤٤). كما تستنكر بلسي محاولات بعض حركات ما بعد البنيوية للقضاء على الدال signified أملا في القضاء على سلطته السياسية، فبالنسبة إليها يغدو القضاء على المعنى ذريعة للتحكم في السلطة السياسة. لذا، توضع مسألة القيمة المستقلة في الدراسات الأدبية رهن المساءلة، خاصة عند تكشف علاقات التناص بين النص الأدبي والخطابات المعاصرة المتداولة.

تطرح بلسي Belsey مشروع قراءة يساعد الكشف عن مواقع السلطة والقوى المناهضة لها، دون فرض هرم قيمي؛ لاستحالة التوصل إلى معنى مطلق في الأدب، ومن ثم استحالة التوصل إلى القيمة النهائية. يتلخص مشروعها في تحليل جدوى معايير القيم في إثارة المناقشة الأدبية وكيفية الاختلاف عليها في الحياة الاجتماعية (١٩٩٢: ٤٠). يفضي هذا التساؤل إلى كتابة التاريخ السياسي أخذا عن النصوص الأدبية؛ أي إعادة كتابة النص لإظهار دلالته السياسية. لم يعد النص محدودا بحيز التحليل النقدي الذي ابتدعه ليفيز F.R. Leavis ومدرسة النقد الجديد، بل غدا موقعا يعيد تمثيل الواقع بوصفه تاريخا سياسيا. والقراءة المطروحة لا توجد علاقة بين الآني وماض طوباوي يسعى الحاضر لإحيائه، بل هي قراءة مضادة للكشف عن تحولات السلطة وإمكانات ردعها. تعد تلك الرؤية إلى الحاضر ذات منظور نسبي ولا تستسلم لجمود الصيرورة.

ويبتعد جوناثان دوليمور Jonathan Dollimore عن منهج النقض/ والاحتواء subversion/containment لجرينبلات، ليطرح نقدا معارضا يتخذ موقفا سياسيا صريحا. وفي مقاله "شكسبير والمادية الثقافية والتاريخانية الجديدة" يميز بين من تتمحور دراساتهم حول الثقافة بوصفها صانعة للتاريخ؛ أي المادية الثقافية، وبين من يركزون على الطابع الظرفي للثقافة الذي تتأسس به ويقيدها في آن (١٩٩٢: ٤٧)، ويدافع عن اختياره الطريق الأول لاعترافه بفاعلية الفرد وتقديره للتجربة البشرية، بينما يرفض الموقف الثاني لاعتماده التشكيل البنيوي في تفسيره للمعيشي مما يفضي إلى التسليم باستقلالية الأدب.

وفي كتابه ***المأساة الراديكالية*** *Radical Tragedy* يفصح عن تبنيه المنهج النقدي المادي الذي قدمه رايموند ويليامز Raymond Williams في كتابه ***النزعة المادية والثقافة*** *Materialism and Culture* (1980) والذي يطرح فيه رؤية نسبية للفرد لمواجهة الرؤية الجوهرانية الناجمة عن الشكلانية الأدبية (٤٤). ويبرز دوليمور ضرورة استخدام النزعة المادية في النقد للكشف عن دور النظام الاجتماعي السائد في شرعنة legitimization الممارسات والمعتقدات لترسيخ علاقات الهيمنة والخضوع، فيتم تطبيعها وتطبيع القيم المفروضة من قبل المؤسسة، لإخضاع التاريخ لروايتها المنسوجة والتي تسيّر التاريخ نحو نهاية تتفق ومنظورها، ليفضي المسار التاريخي حتميا إلى النظام القائم. يترتب على هذا النظام التاريخي الغائي teleological تهميش المنشقين dissenter، وهذا ما حدث بالفعل في عصر شكسبير، حيث تم فيه شرعنة legitimization النظام الاجتماعي السائد وتطبيعه، بينما تم إقصاء المنشقين والمختلفين في الرأي بوصفهم أتباعا لإبليس (١٩٩٢: ٤٩).

ومن هذا المنطلق، يرفض دوليمور مقاربة جرينبلات الأحادية لدراسة تاريخ الماضي، وفي مواجهة ذلك يطرح الدراسة المادية التي تدحض محاولة توحيد التاريخ والتحولات السوسيوسياسية في إطار الوعي الجمعي المزعوم؛ حيث يعتبرها دوليمور استراتيجية تستخدمها القوى المهيمنة لإخضاع المنشقين الذين يهددون المؤسسة.

كما يمارس دوليمور المادية النقدية للكشف عن دور النص الأدبي في إنجلترا في عصر الملكة أليصابات، بوصفه ممارسة اجتماعية. وهو يعترض على تناول المأساة tragedy بوصفها نصا يتجاوز اللحظة التاريخية لتمثيل حقائق عالمية، ويؤكد أن هذه المزاعم تستند إلى موقف سياسي؛ لما كانت المسرحيات المأساوية تمثله من تحد، فنجحت السلطات في ترويض المأساة لتحقيق مآربها في احتواء العوام. ويختلف دوليمور عن جرينبلات في مفهوم الاحتواء، فبالنسبة إليه لا يعد الاحتواء مجرد تحريف perversion لعملية التلقي، بل يرى علاقة النص بالسلطات والعوام أكثر تعقيدا.

التعزيز والنقض والاحتواء بوصفها عمليات تاريخية وثقافية

يتناول دوليمور العلاقة المركبة بين أطراف التلقي والنص بدراسة النصوص التي تعزز مؤسسة الملكة أليصابات، إلى جانب النصوص الساعية إلى نقضها؛ ليبين أن العملية ليست مجرد موقف معارض، بل ما هو أعقد من ذلك. فهو يرى أن المشهد الاجتماعي لا يخضع لمراقبة سلطة عظمى، بل يتكون من عناصر متنافسة تَخضع وتُخضع (بفتح التاء وضمها) في آن، وتنتج الثقافة عبر الاستملاك - فيما تفضي عملية الاستملاك إما إلى إعادة إنتاج آليات المصدر، وإما إلى تحويلها (١٩٩٢: ٥٣). والتعريف المغاير للاستملاك يترتب عليه تعريف مغاير لمفهومي النقض والاحتواء، يبتعد عن تجسيم وضع السلطة، مثلما فعل جرينبلات. فبالنسبة إلى دوليمور، إن نجحت السلطة في الاحتواء فهو دليل على وجود عناصر مقاومة، وإن استملكت السلطة النقض لتحقيق مآربها، فهذا لا يعني أن النقض قد لا يستخدم ضدها. ففي استملاك آليات الشقاق قد تنشق السلطات على نفسها، وبالمثل قد يستملك المنشقون الخطاب السائد ليتحول إلى أداة لنقض السلطة. وفي هذا دليل على أن نصوص التمثيل تنطوي على انتهاك؛ لذا فهي تُشكل التاريخ، وإن تشكلت به.

واشتراك دوليمور في الجدل القائم حول النقض والاحتواء يساعده على تشكيل مبحثه التاريخي، ليتمكن من تحديد ماهية الفعل النقضي الذي لعب دورا حيويا في التقدم، وكيفية تفسيره في ما بعد؛ لتحديد ما إذا كان فعلا ثوريا أو مجرد شغب فوضوي (١٩٩٢: ٥٤). ويتّبع هذا المنهج عند دراسته للتراجيديا في العصر اليعقوبي، حيث يطرح دوليمور علاقة بين تقويض سلطة الدولة والكنيسة، والمسرحيات المعروضة في بدايات القرن السابع عشر التي عرضت تشريعات المؤسسات السلطوية والأيديولوجيا القائمة عليها للمساءلة (١٩٨٤:٣). وعلى خلاف الشكلانيين، يحاجج بأن المفارقة الساخرة قامت بدور نقضي، أما التحليل الشكلاني للمسرحيات فقد اعتبرها عنصرا لتحقيق الوحدة العضوية؛ مما أفضى إلى تحييد أثرها النقضي تحت دعاوى العالمية. ويؤكد دوليمور أن نهاية المسرحية لا تعرقل عناصر النقض الكامنة فيها (٦٠)، فالنقض يعد احتمالية كامنة في النص تتحقق أثناء عملية التلقي، وهو ليس خاصة جوهرانية يمكن تناولها بمعزل عن النص، بل يتم النقض في إطار اجتماعي، فإما يوجه ضد السلطة وإما يساندها.

يبرز دوليمور الدور المعارض للنقد المادي بكشفه للأساليب المركبة و استراتيجيات السيطرة؛ حيث لا يقتصر اهتمامه على التوصل إلى الصوت السائد والآخر المناهض له، بل يهتم بالكشف عن الانقسام الذاتي الذي يدعم حالة الإخضاع. وفي هذه الحالة لا ينبغي اعتبار الوعي بقدرة السلطة على احتواء النقض بوصفه موقفا يسلم بالجبرية، وهو ما يوحي به تحليل جرينبلات. على العكس، يغدو الكشف عن هذا الاحتواء ممارسة معارضة، فهو ينّم عن وعي بالظرف التاريخي وتقلباته وتغير الواقع؛ مما ينقض فكرة شمولية السلطة واستمراريتها. يعمل النقد المعارض على إعادة قراءة الثقافة للكشف عن المهمشين والاستماع إلى صوت المستضعفين. وهذا

يصادق بدوره على الفكرة التي تذهب بأن السلطة لم تكن monolithic شمولية في الماضي؛ فلا ينبغي توقعها على هذه الصورة في الحاضر (٥٥).

كما يعضد لويس مونتروز Montrose هذا الرأي، ووفقا له، تعد لحظات المقاومة ومحاولات النقض، والاستملاك متفرقة وذات تأثير محدود؛ مما يتطلب مقدرة على التمييز بين التنويعات الخفية للأشكال المتغايرة للمقاومة (١٩٩٢: ٤٠٤). ومن هذا المنطلق، يستبدل مونتروز مفهوما آخر للأيديولوجيا يتسم بتغاير الخواص، وعدم الثبات، وفي حالة من التشكل الدائم، يستبدله بالمفهوم الأحادي لها وهو بذلك يتبنى طرح رايموند ويليامز للأيديولوجيا في كتابه *الماركسية والأدب*، بوصفها عنصرا نشطا يفتح آفاقا جديدة لمواجهة الأعراف السائدة. ووفقا لمونتروز، تعد الثقافة نموذجا ديناميكيا/نشطا للتشاحن مع المواقع المتسيدة والخاضعة التي تدعم أيديولوجيتها، وتقيم علاقة حوارية بين الثبات والتغيير، والهوية والاختلاف بين كافة عناصرها (١٩٩٢: ٤٠٥). أكدت تلك الدراسات ضرورة أرخنة النصوص وتنصيص التاريخ (عبد الله الغذامي ٢٠٠٠: ٤٥)، فالولوج إلى الماضي يتحدد بعلاقته بالحاضر. ما يتبقى لنا من الماضي خضع لعملية انتقاء حددت ما يحفظ منه وما يمحي، نتيجة تغيرات عديدة طارئة. على هذا النحو لا ترجع الكتابة والقراءة إلى تاريخ واحد، بل إلى تواريخ عدة.

حاضر الماضي في علاقته بتشكيل الهوية

حيث إن علاقة الماضي بالحاضر علاقة استملاك واشتباك، فهي تتسم بالازدواجية، تحتم قراءة مزدوجة للتاريخ، فيترتب على تأويل الماضي تعميق معرفة القارئ الذاتية، وفتح آفاق لإقامة علاقة حوارية بين ذاتية تعارض تأطير الأحداث التاريخية في منظور أحادي. ويؤهل المنهج النظري القارئ لتعريف موقعه الاجتماعي والثقافي، خاصة عند السعي إلى تشييد الهوية في الحاضر، فالتفكير النظري يساعد على فهم أهمية الماضي التاريخية، وطرح إمكانات للاشتباك معه، حيث تتعدد الخيارات وتتنازع عند تشييد الهوية في الحاضر.

يغدو تشكيل الهوية ممارسة حوارية تعيد النظر في الأصوات المهيمنة التي تتعمد إقصاء الآخر، وتلك التي قد أقصيت بفعل خطاب الغيرية. وفي هذا الصدد، نسترجع ما ذهب إليه باختين بالنسبة إلى العالم الذي تسوده تعددية الأصوات heteroglossia، فكل شيء يكتسب معنى ويُفهَم بوصفه جزءًا من كل أكبر، وتظل المعاني تتفاعل، فيما يحمل كل معنى في طيه قابلية التكيف وتكييف المعاني الأخرى (١٩٨١: ٤٢٦). وبناء عليه، تغدو الذات خاضعة لخطابات عدة، ويصعب عليها وصف حفرياتها الخاصة، وهذا ما يحاجج به فوكو أيضا في حفرياته، فالذات المخاطبة تغدو جزءا من آليات الخطاب الذي تحاول وصفه (١٩٧٢: ١٣٠). نتبين من ذلك أن الهوية صنيعة الاختلاف، وبالإشارة إلى الاختلاف يذهب فوكو إلى أن عملية التعقل تأتي بالاختلاف، ورواية التاريخ تتم بتحديد اختلاف الأزمنة، فما نحن سوى أقنعة متغايرة (١٩٧٢: ١٣١).

أما ميشيل دي سرتو Michel de Certeau، فيتناول كيفية تشكيل الهوية عبر الخطاب التاريخي، فوفقا له: "يكشف الخطاب التاريخي عن الهوية الاجتماعية، دون الأخذ بها بوصفه إحدى المسلمات، أو الحقائق الراسخة، بل يوضح كيفية اختلافها عن حقبة سابقة أو مجتمع آخر" (١٩٨٨: ٤٥). يقوم المؤرخون بتحليل علاقة الحاضر بماض سحيق أو قريب لم تمح آثاره بعد. وبينما ينصب اهتمام فوكو في تحليل كيفية تشييد الهوية عبر أنساق المجتمع، يتركز اهتمام دي سرتو على دور التاريخ في إظهار موقع أحد الأجيال بالنسبة إلى أسلافه، ليتجلى لنا عبر التحليل التاريخي أن تشييد الهوية يختلف باختلاف المحيط السوسيوسياسي

sociopolitical الذي يفرزها. يغدو تشييد الهوية جزءا من صياغة التاريخ؛ فهي عملية تتضمن معرفة جديدة بالماضي (١٩٨٨: ٤٦-٤٧).

وقد فقدت التعريفات الجوهرانية للهوية مصداقيتها، فهناك اتفاق عام بأن الهوية هي تشييد ذاتي وتكتسب خصوصيتها بوصفها نتاجا لتاريخ مادي. وتتلازم عملية تشييد الهوية واكتسابها الغيرية باستملاك أصوات مزدوجة متعددة تتناحر فيما بينها. ينبغي التطلع إلى الهوية بوصفها موقعا حواريا يتفاعل فيه خطابا السادة والمسُودين، فيمكن استراق السمع لاشتباكهما في الأدب والشعبي وحتى في النصوص التي ينسجها المؤلفون المتمسكون بالنواميس الجمالية.

تاريخ المعيشي

الهدف من الدراسات الثقافية هو إقامة سياسة نقدية، تضع دراسة التاريخ والزمن والحقيقة رهن المساءلة، وفي مساءلة تلك المفاهيم ما يثري الخطاب النقدي. ويحاجج ميشيل دي سرتو Michel De Certeau من أجل مفهوم جديد للتاريخ بوصفه إنتاجا، فلم تعد الحقيقة في الوقت الراهن شيئا ظاهرا، بل غدت خاضعة للإنتاج. ويحيل مؤلفه ***كتابة التاريخ*** *L'ecriture de l'histoire* إلى النصوص المقدسة والتاريخ العلماني في آن، كما أنه يحيل إلى رسالة الأدب المزدوجة في كونها كتابة إبداعية ووثائقية. كما تقترب كتابة التاريخ من الترجمة، فهي تنقل شكلا من أشكال التدوين إلى آخر transcription لتغدو منتجا يحاول فيه المؤرخ ترجمة ما بات مكبوتا أو مجهولا في خطاب مترابط (de Certeau, 1988: xx-xi). يعتمد طرح دي سرتو على منهج يتجاوز الحدود المعرفية transdisciplinaire يدمج فيه التاريخ والأدب وعلم النفس.

يفضي ذلك إلى أن التاريخ منتج تثويرى لإنتاج المعنى؛ حيث يتشكل المعنى وفقا للخيارات التاريخية، فبدلا من استجلاء المعنى بمراقبة الواقع، يمكن الآن استخلاصه من خيارات عدة تستمد من محاولات متكررة لتفسيره. ولا يعني ذلك أن القراءة التاريخية تتجنب الواقع أو الحقيقة، بل يشير إلى تأثرها بتغير العلاقة بين التاريخ والواقع (de Certeau, 1988: 30). صارت الوقائع التاريخية تخضع للتأويل بوصفها علامة على فعل، حيث غدت خطابا ينسج الواقعة. ولا يمكن استشفاف معنى الواقعة التاريخية من أيديولوجيا سائدة أو فرضيات تاريخية معطاة مسبقا.

وبتناول القراءة التاريخية بوصفها رواية منتجة يتجنب الناقد الوقوع في شرك التقنيات السلطوية التي طرحها فوكو، ليغدو أكثر اقترابا من مكونات المعيشي. وفي هذا الصدد يقتبس دي سرتو عن ماركس ما يدعم أطروحته: تتنوع سمات العيش، ومن أهمها المأكل، والمشرب، والسكن. وعند المواجهة التاريخية الأولى، يسعى الفرد إلى إنتاج وسائل لإشباع تلك الحاجات، وهذا السعي هو بمثابة إنتاج للحياة المادية عينها" (de Certeau, 1988:13)[٣].

ومن ثم، يتطلب تحليل وسائل الإنتاج تحليلا للحاجات، والأنظمة الاجتماعية ومؤسساتها، كما يتطلب إقامة علاقة جديدة مع ممارسات المعيشي. وبدراسة وسائل إنتاج الحياة المادية بوصفها أساس الواقع التاريخي، يقيم دي سرتو علاقة بين رواية التاريخ وممارسة المعيشي. دأب دي سرتو على تحليل الحيل التكتيكية التي يستخدمها المستهلك لإعاقة السوق الرأسمالي، وهو تكتيك يسمح بتفعيل موقف نقدى بديل. وقد كشفت دراسة دي سرتو الفجوة القائمة بين التقنيات السلطوية وممارسات الأفراد، وبناء عليها طرح نظريته عن الاستهلاك بوصفه تكتيكا.

وقد جاء تعريف دي سرتو للاستهلاك في كتابه "*ممارسة المعيشي*" *The Practice of Everyday Life*، بوصفه استخداما لما ليس من صنع المستهلك، ولكنه ينطوي على لحظة منتجة، أو خلاقة (١٩٨٤، XII). ويوازن دي سرتو بين الاستهلاك واستخدام اللغة، فالكلام ليس

مـن صـنع البشـر، ولكـنه استملاك للغة من قبل المتحدثين، والمثل يسري على الممارسات الأخرى مـثل المشـي، أو الطهـي الخ. (de Certeau, 1988: XIII). وعلـيه، يـلجأ المسـتهلك إلى حـيله التكتيكية الخاصة باستخدام اللغة العادية والثقافة العامة لنقض المجتمع الاستهلاكي السائد وخلق فضائه الخـاص. ويتمـثل لـنا ذلـك الاستخدام النقضي للغة في الأغاني الاحتفالية لجماهير الأحياء الفقيرة التي هزمتها أنظمة السوق، ويرى دي سرتو في تلك الظاهرة ضرباً من اليقين.

يقـدم لنا دي سرتو المستهلك بوصفه فاعلا اجتماعيا يهرب من ثقافة الاصطفاء في ممارساته المعيشـية، ويدعـم نظريتـه بمـثال يـرده مـن تـاريخ الهـنود الحمـر الذين أرغموا على اعتناق ثقافة المحـتل الإسـباني، ولكـنهم تمكنوا من نقض تلك الثقافة الغريبة المفروضة عليهم ووجهوها لتحقيق مـآرب مغايـرة، لا تفيد مصلحة الحكام. وتستخدم هذه السياسة الملتبسة عينها عندما يرغم العامة عـلى استـهلاك الثقافة الرفيعة؛ فهم يولفونها لخدمة ثقافتهم الشعبية. وفي هذا الصدد يختلف دي سـرتو عـن جرينـبلات في تناولـه لكيفية استقبال الهنود الحمر لتأثير الثقافة الغريبة عليهم. يذهب جرينـبلات إلى أن السياسـة الاستيطانية تأسست على فكر يناهض الثقافة الأوربية السائدة آنذاك، فمسـتوطنو العـالم الجديـد كـانوا منشـقين علـيها. ولكـنهم بإبادتهم لثقافة الهنود الحمر، المواطنين الأصـليين، تم احـتواء العنصـر النقضـي في مشـروع الاستيطان، ومن ثم إرجاؤه. وفي احتواء العنصر الـنقدي مـن قبل السلطة الاستيطانية الجديدة، في هذا الإرجاء المستمر ما يجعل التغيير الاجتماعي مسـتحيلا. يعـتمد جرينـبلات في تأويلـه عـلى بنـية الاقتصـاد الـرأسمالي الـتي تفسـر العملـيات الاجتماعية بوصفها عمليات نقضية مرجأة.

وتعـارض نظـرية دي سـرتو مـنهج جرينبلات التحليلي، فهو يرى أنه كلما صار المجتمع الـرأسمالي شمولـيا ازدادت فـرص العصـيان، وهـي تـتخذ أشـكالا مـتعددة تمـتد إلى أدق التفاصيل الحياتـية. وعلى سبيل المثال يعد السير في المدينة أحد أشكال المقاومة؛ فالجوّال يخرق نظام المدينة الثابـت ويستشـف معانـيه الخاصـة بالـتفاعل مـع العالم المحيط. ما يبرزه طرح دي سرتو هو توفر إمكانـات لـتقويض الـنظام التراتـبي بـين المستهلك والمنتج، ذلك بالتعرف على قدرة الجماهير على إعـادة إنتاج الثقافة السائدة في فضاءات جديدة تفرز معانيها الخاصة، ولتفادي الانغلاق في الأنظمة القمعية.

ومـن ثـم، بوسع الذات الخاضعة أن تصبح ذاتا فاعلة دون اللجوء إلى ثورة طاحنة، حيث يـورد لـنا دي سـرتو نمـاذج من المقاومة في الحياة اليومية. فإلى جانب الحيل التكتيكية المستخدمة لـتقويض الأنظمـة الصـارمة، يدعونـا دي سـرتو إلى دراسة السياسات المتغايرة للجماعات المهمشة، فدراسـة خطـاب الأقلـيات يهـتم بالخصوصـية بوصـفها تشـغل موقعـا خاصـا. كـان النقد الفاحص لخطـاب مـا بعـد البنـيوية توصـل إلى حـياد الذات متجاهلا موقعها الاجتماعي. أما دراسة خطاب الأقليات فهـو يحـيل الـذات إلى موقـع خـاص؛ لـيقوض مـزاعم الحـياد الـتي تشيّد رواية الوقائع التاريخـية مـن مـنظور كلّياني. وفي دراسة مواقع الأقليات اعتراف ضمني بقراءات متعددة للتاريخ، تتناول الذات بوصفها متعددة الأصوات.

وفي هـذا الصـدد هـاجم دولـيمور Dollimore أيضا نقد ما بعد البنيوية لتسليمه بانشطار الـذات؛ ممـا ترتـب علـيه محوهـا، وجعلها عاجزة عن التحرك بوصفها فاعلا اجتماعيا قادرا على التغيير. ويضـيف بـأن أي تصـور ينـبني على لامركزية الذات عليه اتخاذ موقف نقدي من أشكال الشـرعنة القائمـة. والقصـد مـن طرح مفهوم لامركزية الفرد هو إتاحة رؤية جديدة للعلاقات القائمة بـين الـتاريخ، والمجـتمع، والذاتية، من منظور بديل. وفي التعريف بلامركزية الفرد ما يهيئ الفرد لتقبل القـدرات الثقافـية الكامـنة في الجماعـات المهمشـة والاعتراف بأهليتها، بالإضافة إلى تعرف

الأهـــداف المشتركة في المجتمع على وجه العموم بدلا من الاضطرار للتسليم بالمصـــير المحتـــوم (Dollimore, 1984: 71-270).

وقـد تـناول دي سـرتو علاقـة الكتابة بانشطار الذات، فوفقا له "تتولد الكتابة عن الشك، وعـن الانقسـام الصـريح للـذات، وباختصـار، نتيجة اسـتحالة إيجـاد موضـع للـذات، واستحالة الارتكـان إلى ذات عارفـة cogito، ما يدفع المرء إلى الاغتراب عن نفسه، ويظل محروما من أساس أونطولوجـي/وجـودي، فـيظل في مقام الفـائض، مفـتقدا الانتسـاب إلى عشيرة أو أرض ذات وجود مـادي، والاسـم الـذي اقـترن بـه يفـتقد الروابط المادية، فهو خالي الوفاض (٣٢٠:١٩٨٨). ومثلما يـتحقق الفـرد بالفـناء في الكـتابة يـتحقق الـتاريخ بالانزياح نحو الرواية، وهي أطروحة فرويد التي يعرضـها دي سـرتو في مؤلفه ***كتابة التاريخ*** *The Writing of History*. في تمسك التاريخ بالرواية توقـا إلى الابـتعاد عـن العلموية وتعرفا إلى أن السرد ينجم عن استحالة الرؤية الكليانية. وباقتراب الـتاريخ مـن الآخـر/ الـرواية، باقتراب الماضي من الحاضر، ما يؤكد ضرورة احتواء الآخر والتفاعل معه، ابتعادا عن الفناء، وسخرية من الموت.

وبالـمثل، يقـدم دي سـرتو قـراءة تاريخـية لمواقـع الأقليات تعارض القراءة التاريخية ذات الـتوجه الأيديولوجـي، أو القـراءة اللا تاريخية التي تعامل الزمن من منظور كلياني. وبالتركيز على خصوصـية المكـان يؤكـد خصوصـية موضـع الـذات - ولـيس انتماءاتها الطبقية - فتغدو الذوات في مجمـلها - مركـزية كانـت أو مهمشـة - صانعة للتاريخ؛ مما يضعها رهن المساءلة، ومحور اهتمام القراءة التاريخية النقدية.

ويـنـبغي الـتـنويه في هـذا الصدد بأن الهامش لم يعد يشير لمجرد الأقليات، بل المهمش هو وصـف يطلقـه دي سـرتو عـلى مـن لـيس لهم دور في إنتاج ثقافة المؤسسة، ويطلق عليهم "الأغلبية الصـامتة" فهـم يلجئون إلى حيلهم التكتيكية الخاصة للتغلب على نظام السوق الاستهلاكي، سواء في الممارسـات المعيشـية الـتي لا تخلو من الأفق السياسي أو في الإبداع الشعبي - ويأتي إنتاجهم في معظـم الأحيان في هيئة توليفة بالجهد الذاتي bricolage تخرج على الثقافة السائدة. وفي الغالب، يفصـح الخطـاب الشـعبي عـن وعـي بالمفارقـات السـاخرة، وعـي بالحضـور والغـياب، بالإقصـاء والتهمـيش. يفضـي بـنا ذلـك إلى معـايير جمالـية مضـادة، أو جمالـية تنبـئ عـن تحول في تعريف الواقعـي لـيطلق مـنظورا مغايـرا لـلحداثة، لـيغدو الـنص تمثـيلا ثقافيا، يجتمع الكاتب والقارئ في إنتاجه، وتتلاقى به المعارف النظرية بالخبرة المعيشية.

الاستنتاج

ازداد الترابـط بـين الـنظرية والممارسـة لـيؤذن بعهد جديد تنتشر فيه الدراسات البينية في مجـال الدراسات الثقافية. جاء تحول الدراسات النقدية نحو الثقافة نتيجة تغيرات سوسيوسياسية sociopolitical نجـم عـنها تحول جذري في الممارسات التاريخية والنظرية. فقد أفضت الحركة الطلابـية لعـام ١٩٦٨، والحركات النسوية، وإشكالية الغيرية التي فجرها النازحون والمهمشون إلى تقويـض الفلسـفة الوضـعية والخطـاب المؤسـس علـيها. كمـا دحضـت دراسـات فوكو للغة أسطورة الموضـوعية الـتي كانـت قـد أفضـت إلى قـراءة أحاديـة للـتاريخ تعمـل على تغليب صوت انفرادي. وتعـددت قـراءات فوكو بتعدد المؤرخين والنقاد الغربيين في تأويله، فأخذ وايت عنه المنظور النسبي للـتاريخ؛ لـيبين علاقة تمثيل الماضي بالنسق اللغوي الناجم عن موقع المؤرخ المكاني والزماني، فيما انشـغل جرينبلات بالمباني الاجتماعية لتمحور دراساته حول علاقة المسرح بالتشكيلات الاجتماعية المؤسسـة للمعـتقدات الجمعـية بشـكل عـام؛ ممـا دفـع بـه إلى تنصيص التاريخ بقراءته عبر مقاربة شكلانية.

وبالتحرك بين الشعرية والتاريخ تكشفت المباني الاجتماعية، وتراجع عن الساحة النقدية منتجو القراءة الأحادية للتاريخ التي تدعم تلك المباني. ويظل الجدل قائما حول سياسة النقض والاحتواء، فهل تعد إسهاما في تدعيم تلك المباني الاجتماعية، أم تشكل تهديدا لها؟ يحاجج جرينبلات بأن السلطات عادة ما تنجح في احتواء النقض، بينما يذهب دوليمور، إلى أن استملاك السلطات للنقض، لا يمنع استخدامه ضد السلطات عينها؛ ففي الكشف عن احتواء السلطات للنقض، نقض لها يعارض فكرة السلطة المطلقة. والملاحظ أن نقاد المادية الثقافية أكثر اهتماما بالبرامج المعارضة التي تشجع الفاعلية الاجتماعية، ومن ثم فقراءاتهم الثقافية للماضي تطرح احتمالات للمقاومة في الحاضر. وبناء عليه، تنطوي الكتابة التاريخية على علاقة مزدوجة بين الماضي والحاضر؛ ففي القراءة الشعرية للتاريخ تعميق للمعرفة النظرية، فيما يعد التأمل النظري للعمليات التاريخية أحد المتطلبات لتشييد الهوية في الحاضر.

ويتجلى لنا من هذا البحث النقدي ضرورة تنصيص التاريخ لكشف أبعاد الرواية الكامنة في كتابته، ودورها في اختزال الهوية. وبتقويض الرواية التاريخية تغدو الهوية موقعا يفسح المجال للحوارية بين الأصوات المهيمنة، وتلك التي تم إقصاؤها بسبب الاختلاف، وعبر الحوار حول الهوية يتم التفاعل بين الأصوات المتعددة؛ لتشترك جميعها في الفاعلية الاجتماعية. كما يدعونا هذا البحث النقدي إلى قراءة تاريخية تكشف النقاب عن الروايات المتعددة في التاريخ، أو التواريخ المتعددة لذوات متعددة.

يفضي بنا هذا الطرح إلى ضرورة تأريخ موضع المهمشين؛ لمتابعة الحياة اليومية لعامة النساء والرجال، بوصفهم يمارسون المقاومة في المعيشي. حان الأوان للمرأة العادية أن تصنع التاريخ بالوعي الفردي، وأشكال المقاومة اليومية تدل على أن المقاومة لا تنحصر في إطار النص الأدبي، بل يمكن ممارستها في الحياة اليومية. بات العقل النقدي يرفض الالتزام بالقيود الأكاديمية، ويحتاج إلى حرية التحرك بين الشعرية والسياسة، والتنقل بين النظرية والممارسة؛ لاكتشاف عملية أرخنة النصوص، وتنصيص التاريخ.

الهوامش :

(*) يعد هذا البحث تطويرا وإضافة إلى دراسة نشرتها بالإنجليزية في:

Bulletin of The Faculty of Arts 60 3 (July) 2000:51-88

(١) أتقدم بالشكر إلى الزميل الدكتور ريشار جاكمون لإعارتي كتاب François Cusset, *French Theory: Foucault, Derrida, Deleuze & Cie et les mutations de la vie intellectuelle aux États-Unis*. Paris: La Découverte, 2003، بعد إتمامي هذا البحث. وإن كان الكتاب يقدم القراءة الأمريكية للنظرية الفرنسية، أحاول في هذه الورقة تقديم قراءة عربية لتفاعل النظريات الغربية بما يفيد رؤيتنا النقدية التي يشكلها موقعنا الثقافي.

(٢) تعد الأركيولوجيا نسبة إلى فوكو محاولة وصف العلاقات المتداخلة بين الخطابات، انبثاقها، ترابطها، وقطيعتها، تحولاتها، وأفولها.

(3)Karl Marx and Friedrich Engels, *The German Ideology, Basic Writings on Politics and Philosophy,* (ed.) S. Feuer, NY: Doubleday, 1959, 243.

المراجع :

الغذامي، عبد الله – *النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية* – الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي ٢٠٠٠.

Bakhtin, Michael 1981. -The Dialogic Imagination. - Ed. Michael Holoquist. Trans.Caryl Emerson & M. Holoquist. - Austin: Texas UP.

Barthes, Roland 1988. – "Science Versus Literature," Twentieth Century Literary Theory: A Reader. – (Ed.) K.M. Newton. – London: Macmillan: 140-44.

Belsey, Catherine 1992. - "Literature, History, Politics". In: · New Historicism and Renaissance Drama. – (Eds. & Introduction) Richard Wilson & Richard Dutton. · London: Longman: 33-44.
Bourdieu, Pierre 1990. · The Practice of Theory. · (Eds.) Richard Harber, Cheleen Mahar & Chris Wilkes. · Hampshire: Macmillan.
Certeau, Michel de 1984. · The Practice of Everyday Life. – (Trans.) Steven Rendell. Berkeley: California UP.
_____. 1988. · The Writing of History. – (Trans.) Tom Conley. · New York: Columbia UP.
Dollimore, Jonathan 1989. · Radical Tragedy: Religion, Ideology and Power in the Drama of Shakespeare and his Contemporaries. · Brighton: Harvester Press.
_____. 1992. · "Shakespeare, Cultural Materialism and the New Historicism". · New Historicism & Renaissance Drama: 45-56.
Foucault, Michel 1972. · Archeology of Knowledge and The Discourse on Language. – (Trans.) A. M. Sheridan Smith, · New York: Pantheon Books.
_____ 1977. · "Preface to Transgression." Language, Counter-Memory, Practice: Selected Essays and Interviews. – (Ed.) & Introduction Donald F. Bouchard. – (Trans.) Donald F. Bouchard & Sherry Simon. ·Ithaca, · New York: Cornell UP.
_____ 1978, 1995. · Discipline and Punish: The Birth of the Prison. – (Trans.) Alan Sheridan. · New York: Vintage Books.
_____ 1988. · Madness and Civilization: A History of Insanity in the Age of Reason.–(Trans.) Richard Howard. · New York: Vintage Books.
Geertz, Clifford 1973. · The Interpretation of Cultures. · New York: Basic Books.
Greenblatt, Stephen 1988. · Shakespearean Negotiations: The Circulation of Social Energy in Renaissance. · Berkeley; California UP.
_____ 1989. · "Shakespeare and the Exorcists." Contemporary Literary Criticism: Literary Cultural Studies. – (Eds.) Robert Con Davis & Ronald Schleifer. · London: Longman: 428-47.
_____. · "Invisible Bullets: Renaissance Authority and its Subversion, Henry IV and Henry V." · New Historicism & Renaissance Drama: 83-108.
_____ 1997. – "The Touch of the Real." Representations ·59 (Summer): 1997. Excerpt in http://violet.berkeley.edu:7000/R59/Greenblatt.html
Jenkins, Keith 1998. – "A Conversation with Hayden White." Literature & History 71 (Spring): 68-82.
Montrose, Louis 1992. · "New Historicism." Redrawing Boundaries: The Transformation of English and American Literary Studies. · New York: The Modern Language Association of America: 392-418.
White, Hayden 1973 – Metahistory, The Historical Imagination in the Nineteenth Century Europe. – Baltimore: The Johns Hopkins UP.
_____. 1978. – Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism. · Baltimore: The Johns Hopkins UP.
Williams, Raymond 1960. · Culture and Society: 1780-1950. · New York: Anchor Books.
_____ 1977. · Marxism and Literature. · Oxford: Oxford UP.